روح الميوعة والنعومة في الشعب

في هـذا الوقت الذى تتعرض فيه الشعوب الغنية المترفة كانجلترا وفرنسا لضروب من الحرمان فى كل شيء ، وتتعرض للنكبات والكوارث فى كل لحظة ، يعز علينا نحن أن نتنازل عما تعودناه من النعيم والرفاهية والكماليات . ففى أوربا توزع كل المواد الضرورية ببطاقات ، أما المواد الكمالية فقد أصبح معظمها محظورا أو غير موجود ، فلا يشكو أحد من هذه الحالة ولا يتبرم ، لأن للظروف أحكاما وللحروب ضرورات يجب أن يخضع لها الجميع .

وعلى سبيل المثال نذكر أنه محظور فى فرنسا أن يكون للفرد أكثر من حذائين ، ومحظور فى ألمانيا وايطاليا أن يحتوى الطعام على أكثر من نوعين ، وتبلغ كمية اللحم المقررة فى الأسبوع للفرد فى بعض الدول المحاربة مقادير تتفاوت بين نصف الرطل وثلاثة أرباع الرطل ... وهكذا .

وهؤلاء الأوربيون الذين تفننوا من قبل فى إعداد المائدة ، كما تفننوا فى الأزياء والكماليات يجدون فى أنفسهم القدرة على الحرمان ويتعودون الخشونة فى حياتهم ومطالبهم لأن الزمن والحوادث ومطالب الدولة لم تعد تسمح لهم بأكثر مما ينالون .

أما مصر فان كثيرين من التجار استغلوا الظروف فرفعوا الأثمان إلى درجة غير معقولة فى بعض أنواع الأطعمة وسواها فلم نجد نحن فى أنفسنا من القدرة على احتمال الحرمان ما نقاوم به هذا الاستغلال فنمتنع عن الشراء بالأثمان الباهظة حتى يثوب هؤلاء التجار الى رشدهم ويقنعوا بأضعاف ما كانوا يربحون .

منذ أيام لقيت شابا من المصريين يشترى قماشا لبذلة بسعر أربعة جنيهات للمتر الواحد ، ورأيت من يشترى أقة السمك التى كانت تساوى ثمانية قروش بثلاثين قرشا ، وأقة الشليك بثمانية قروش مع أنها تباع من المنتج بقرشين اثنين ... وقس على ذلك كثيرا من الأشياء التى يطلب التجار منا أن ندفع ثمنها أضعافا مضاعفة ، فلا نقوى على مقاومة إغرائها لنا برفض هذه السرقة المكشوفة .

ما ذا تسمى هذه الروح ؟ إن لم تكن هى "الميوعة" بعينها والنعومة التى تدل على المرض ولا تدل على الصحة ؟ وكيف نصنع لو اختفت هـذه الأصناف من السوق ؟ أنموت أم نستطيع الحياة بدونها ؟ واذا كنا نستطيع الحياة ولا شك فلم لا نقاوم رغباتنا المائعة فى الكماليات أو الضروريات التى يستغلنا تجارها هذا الاستغلال ؟

يحلو لبعض الأثرياء عندنا أن يدفعوا الأثمان المضاعفة فى الأشياء ، حتى يحسوا بلذة اقتنائها وعجز الآخرين عن شرائها ، وهذا احساس مشوه ممقوت ودليل على صغر النفس واعتدادها بالأعراض الزائلة لا بالميزات الثابتة ولا بالتفوق الحقيق فى الحياة ، وهو يثير

فى نفوس المحرومين شعور سيئا نحن فى غنية عنه ، شعور التذمر والاحتقار لهؤلاء الذين يدلون عليهم بثرائهم ، مع ضعف نفوسهم وأخلاقهم عن احتمال أبسط الشدائد وأقل الحرمان ويكونون سببا فى طمع التجار وغلاء الأسعار ، لأنهم لو كفوا عن الشراء لرخصت السلع وبانت فى مقدور الجميع ، وبيعت بالسعر الرائج المعقول .

يجب ألا تكون مقدرتنا على الشراء هى كل ما ننظر اليه حين تعرض علينا الضروريات أو الكماليات بأضعاف ثمنها ، بل ينبغى أن نحسب حسابا لعوامل أخرى : فلا نرضى بأن يضحك علينا التاجر ويسرق نقودنا الكثيرة ، فان النفس الكريمة تثور بطبيعتها على من يحاول استغفالها واستغلالها ، ولا نقبل أن نكون سببا فى الغلاء الفاحش الذى يصيب مواطنينا الفقراء بأفدح الكوارث ، فالتضامن الاجتماعى فى أبسط مظاهره يحتم علينا أن نقاوم هذا الغلاء رحمة بهم ، ولا نثير علينا نقمة الطبقات المحرومة حين نختال عليهم بملذاتنا وهم محرومون من الضروريات . والتاجر الذى يجد من الأغنياء من يشترون بضاعته مهما ارتفع ثمنها لا يقف جشعه عند حد لأنه ضامن وجود المشترى . فينبغى أن يقف التضامن الاجتماعى بين الطبقات والأفراد حائلا دون هذا الجشع حتى يرغم هذا التاجر على الوقوف عند الحدود المعقولة .

ويجب قبل كل شىء أن يحسب حساب الحرمان الإجبارى فنستعد له بالحرمان الاختيارى من بعض الأشياء التى لا يؤثر فقدانها فى حياتنا ، أو يؤثر تأثيرا محتملا .

جاء فى الحديث النبوى الشريف "اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم" وزوال النعم فى مثل هذه الاضطرابات لا تأتى به السنون والأعوام ، بل هو طى الليالى والأيام ، بل الساعات واللحظات ، فمن الاخلاص للذات وحب النفس — بغض النظر عن الاخلاص للجموع والعمل للوطن — أن نروض نفوسنا على الخشونة وأن ندع هذه النعومة المائعة اختيارا قبل أن ندعها اضطرارا .

بعضنا يتأفف اليوم من ارتفاع أثمان الخمور والعطور ! أى والله هذا ما نسمعه من الكثيرين من "أبناء الذوات" فكيف يصنع هؤلاء حين تختفى الخمور والعطور من السوق وتختفى معها ضروريات شتى : أيموتون أم يعيشون ؟!

إننا على أبواب صراع عنيف ، بل نحن فى المعمعة ، ولأمم الخشوشنة التى تتحمل الحرمان وتصبر على الشدائد هى التى ستفوز بالنضال ، ولسنا خيرا من أمم أوربا التى تقاسى الأمرين من الغارات الجوية ومن الجوع والعرى والحرمان من جميع الملذات ، فلتتسلح بالإرادة القوية والروح الرياضية ، والخشونة اللائقة بالرجال قبل أن تدهمنا الكوارث ونحن غارقون فى الميوعة والنعومة ، كأننا أمة من الغانيات الرقيقات المزاج !